تشكيلها فرصة مثالية أمامه لإكتساب تجربة متعددة الأبعاد: ريفية ومدينية، عصرية وتقليدية، سياسية وعسكرية.

وإذا اضفنا الى ذلك كلّه، ما تمتع به الرجل من ذهن وقّاد وخيال سياسي راقٍ ورؤية صافية، لتوضحّت العوامل الرئيسية التي دفعت به الى الإندفاع المبكر نحو ممارسة السياسة والعمل على تنشيط حركة شعبه القومية ومن ثم النجاح في بناء زعامة سياسية ثابتة بين الكُرد لاتزال فاعلة الى اليوم.

والواقع أن الفترة التي برز فيها بارزاني وتجسدت شخصيته الواضحة المعالم، أي مطلع الأربعينات من القرن الماضي، تميزت بصعوباتها وحساسيتها البالغة بالنسبة الى الوضع القومي الكُردي. فإضافة الى الحرب العالمية الثانية وعواملها وإنعكاساتها على كُردستان، كانت الحركة القومية الكُردية نفسها تعيش حالاً سيئة من التشرذم والتشتت السياسي والثقافي على رغم إتساعها الأفقي وبروز منظمات وجمعيات سياسية وثقافية في صفوفها وإندفاع شبابها المديني الى المشاركة فيها في شكل أوسع.

على صعيد متصل، إتسمت مسارات الحركة القومية الكُردية في الحقبة بين الحربين العالميتين، الأولى والثانية، بتعقيدات كبيرة. فالبريطانيون والأتراك والعراقيون لم يترددوا في مواجهة الكُرد بالحديد والنار، بينما تجاهلت عصبة الأمم تطلعاتهم نحو إقامة كيان قومي. والأنكى أن القمع المسلط على الكُرد، لم يقتصر على الناحيتين السياسية والثقافية فحسب، بل تعداهما الى حملات عسكرية دموية مباشرة.

وكانت الأمثلة على هذه الحال واضحة:

- *سحق إنتفاضة الشيخ النقشبندي سعيد بيران في ١٩٢٥ على يد الدولة التركية مع إعدام مئتي شخص على ثلاث وجبات من قادتها وكوادرها خلال أيام، إضافة الى تدمير مئات القرى وتشريد عشائر بكامل أفرادها من مناطقهم، وزج ألوف من الشباب الكُردي المتنور في السجون.*
- *وتفتيت إنتفاضات الشيخ أحمد بارزاني في كُردستان العراق في ١٩٢٧ و١٩٣٣ على يد الدولة العراقية وسجن البارزانيين ونفيهم الى*

مدن العراق الجنوبية.

- *وقمع إنتفاضة آگري داغ في كُردستان تركيا في ١٩٣٧ بقيادة الجنرال إحسان نوري باشا، ومن ثم مقتل الزعيم الكُردي في كُردستان إيران إسماعيل آغا شكاك في تلك الفترة، وتراجع إنتفاضات الشيخ محمود بين ١٩١٩-١٩٣١ كلياً بعد إبعاده الى بغداد ووفاته هناك في ١٩٥٦.*

من دون شك، كانت هذه الضربات الدموية مؤلمة بالنسبة الى الحركة القومية الكُردية، لكنها مع ذلك لم تؤدِّ الى تفتتها على رغم التراجع الذي طبع الشعارات القومية. واللافت أن الهجمة الإقليمية ضد الحركة القومية الكُردية ترافقت مع توجه دول المنطقة نحو تعاون أمني وعسكري وسياسي قائم على هدف التضييق ضد الكُرد. وكان حلف بغداد في ١٩٥٥ تعبيراً متأخراً عن ذلك التحالف الإقليمي.

في ما الحال على ما هو عليه، كانت الأوضاع الجيوسياسية لكُردستان تُشير الى إمكان تفاقم هذه الخسائر. فالدول الإقليمية أخذت تعمق من تحالفاتها مع الدول الغربية وتنشيء جيوشاً حديثة وتتسلح بأسلحة متطورة وإمكانات إقتصادية جديدة. وهذا في الوقت الذي كانت فيه هذه الدول تحاول إستغلال الضعف الكُردي في إتجاه إجبار الكُرد على الإنصهار قسراً في هويات قومية وثقافية غير كُردية.

في هذه الأجواء، أجّجت حالة النفي والإعتقال التي عاشها البارزانيون مشاعر الكُرد في شكل عميق. وإذ لم تفد العرائض والمذكرات والنشاطات السلمية للإفراج عن البارزانيين[٨٢]، لم تفد كذلك الإنتفاضة المسلحة التي أطلقها أحد مساعدي بارزاني، خليل خوشوي[٨٣] في ١٩٣٥، في تليين

(٨٢) نشرت صحيفة (نزار) الكُردية التي صدرت في بغداد بين عامي ١٩٤٨-١٩٤٩ (صاحبها ورئيس تحريرها علاءالدين سجادي) في العدد الرابع- ١٥ آيار ١٩٤٨ مذكرة رفعها عشرون ألف مواطن في مدينة السليمانية الى السلطات العراقية طالبوا فيها بالإفراج عن البارزانيين.

(٨٣) إستمرت إنتفاضة خليل خوشوي الى آذار ١٩٣٦ حين نجحت القوات العراقية من قتله وقتل عدد آخر من رجال إنتفاضته.

الإصرار الحكومي على إدامة نفييهم وإبقائهم في السجون.

لفحت الحرب العالمية الثانية منطقة الشرق الأوسط برياح تغييرات عميقة. وكان مرد ذلك أن الحرب، بعد إنتهائها، فتحت الباب واسعاً أمام إندفاع الأفكار الإشتراكية والشيوعية واليسارية الى المنطقة. كما أنها وفّرت فرصة جديدة لتغلغل نفوذ الغرب وأفكاره وصناعاته ومنتوجاته وثقافته الى الشرق الأوسط. وكان من شأن ذلك كلّه عكس أبعاد ومخاضات ثقافية وفكرية وسياسية واسعة على شعوب الشرق الأوسط ومن بينهم الكُرد.

لكن الحرب لم تعكس تأثيرات إيجابية فحسب، بل عكست أيضاً تأثيرات سلبية غير قليلة على شعوب الشرق الأوسط. وكان أهم سلبيات الحرب بالنسبة الى الدول التي توزع عليها الكُرد أنها أدت الى تسريع خطوات تجييش دول المنطقة. كما أنها هيأت ذريعة قوية في أيدي هذه الدول لتبرير إصرارها على تغييب الديموقراطية وتشديد القمع وتوسيع الحملات ضد مشاريع قومية متعارضة كالمشروع القومي الكُردي أو الآشوري أو الأرمني. هذا إضافة الى تمهيدها الأجواء أمام إندفاع الصراعات الدولية الى الشرق الأوسط في إطار نظام القطبية الثنائية الذي وصلت تأثيراته الى المنطقة بعد إنتهاء الحرب بسنوات قليلة.

وما زاد من التأثيرات المباشرة للحرب على مسار الحركة القومية الكُردية أن الجيش البريطاني إنتشر في آب ١٩٤١ في الرقعة الجنوبية من كُردستان في أطراف كرمنشاه الإيرانية وخانقين العراقية. في الوقت عينه إنتشر الجيش السوفياتي في الأطراف الشمالية من كُردستان في أطراف تبريز وأورمية. وكان الهدف من الإنتشارين هو منع دول المحور من السيطرة على إيران ومنابعها النفطية الغنيّة من جهة، وفتح الطريق أمام إتصال الحليفين البريطاني-الأميركي والسوفياتي من جهة ثانية.

والحقيقة أن الإنعكاسات المتناقضة للحرب على الوضع الكُردي كانت لافتة للنظر. فإضافة الى تشبث السلطات المركزية بإدامة نفي البارزانيين، أخذت هذه السلطات تتراجع عن وعود قطعتها للكُرد بمنحهم حقوقاً ثقافية ولغوية محدودة ضمّتها وثيقة إستقلال العراق الصادرة عن عصبة الأمم في ١٩٣٢.

كذلك أخذت تكثف من تواجدها العسكري في كُردستان العراق وتقلل من فرص تمتع الكُرد بأي حق إداري وثقافي ضمن الدولة.

مع هذا، أدت الحرب، من جهة أخرى، الى إنتعاش الحركة السياسية في مناطق كُردية عدة. وإذا صحّ إعتبار جمهورية مهاباد في الرقعة المحصورة بين الإنتشارين البريطاني-الأميركي والسوفياتي في كُردستان إيران في ١٩٤٦ مخاضاً من مخاضات الحرب، فإن الإشارة تصح أيضاً الى أحداث وتطورات أخرى في كُردستان العراق سبقت إنتهاء الحرب.

ففي خريف عام ١٩٣٨ تأسست في مدينة السليمانية جمعية (برايەتی - التآخي)[٨٤] برئاسة الشيخ لطيف (١٩١٧-١٩٧٢) نجل الشيخ محمود الحفيد الذي أقام علاقات وطيدة مع مصطفى بارزاني عند إنتقال البارزانيين الى السليمانية في نهاية الثلاثينات.

في العام نفسه تأسست في السليمانية منظمة سياسية أخرى تحت إسم (آزادي كوردي- الحرية الكُردية). وقبل ذلك بأعوام، كانت الشخصية الكُردية المعروفة حمه آغا عبدالرحمن بادر الى تأسيس منظمة سياسية عُرفت بمنظمة فدائيي الوطن.

كذلك الحال في أربيل التي عاشت في تلك الحقبة إنتعاشاً سياسياً ملحوظاً، خاصة لجهة إنتشار حزب هيوا[٨٥] بين وجهاء المدينة ومثقفيها وطلابها ونشوء بعض الخلايا الشيوعية بين حرفييها. وكانت منظمة حزب هيوا في أربيل في عام ١٩٤٢-١٩٤٣ هي الأكثر نفوذاً بين أكثرية الطلاب الواعين قومياً.

أما في العاصمة العراقية التي تحولت في تلك الفترة الى مركز لنشاط

(٨٤) يذكر السياسي الراحل نوري شاويس أن هذه الجمعية إستمرت الى عام ١٩٤٣، المصدر نفسه، ص ١٧.

(٨٥) يذكر مكرم طالباني أن حزب هيوا نشأ في عام ١٩٣٧ في مدينة كركوك بإسم منظمة (داركەر- الحطاب). وكان هذا إسم منظمة قومية ظهرت في إيطاليا دعت الى الوحدة الإيطالية. أما المرحوم نوري شاويس الذي كان بدوره واحداً من مؤسسي المنظمتين، فإنه يذكر أن قرار تغيير منظمة (داركەر) الى حزب هيوا أُتخذ في إجتماع موسّع عُقد في نيسان ١٩٣٩. أنظر: نوري شاويس، من ذكرياتي، الطبعة الأولى، من منشورات حزب الشعب الديموقراطي الكُردستاني، ١٩٨٥، صفحة ٢٠.

مجموعات من الطلاب الكُرد في جامعاتها، فإن النشاطات القومية الكُردية عبرت عن نفسها على شكل حلقات ثقافية وتجمعات إقتربت حيناً من الحزب الشيوعي العراقي، وإبتعدت عنه في أحيان أخرى. وكان أهم هذه التجمعات الى جانب حزب هيوا، منظمتا (شورش- الثورة) و(رزگاري- الحرية)(٨٦).

على صعيد آخر، دخلت الحركة القومية في كُردستان إيران في الفترة ذاتها مرحلة إزدهار جديدة. وكان تأسيس منظمة (ژيانەوەى كورد- إحياء الكُرد)(٨٧) التي تعرف بحرفيها الأولين (ژ.ك)، في السادس عشر من أيلول ١٩٤٢ في مهاباد، دليلاً واضحاً على بداية هذا الإزدهار.

لكن العوامل الخارجية لم تكن وحدها هي الحافز على إنتعاش الحركة القومية في تلك الرقعة، إنما لعبت إنتفاضة ١٩٤٣ دوراً كبيراً في شحذ الوعي القومي بين كُرد إيران. وقد تجلى ذلك في مبادرة منظمة (ژ.ك) الى مخاطبة مصطفى بارزاني بزعيم كُردستان(٨٨).

في إطار هذه الصورة الجديدة للمجتمع الكُردي، لم تكن المشيخة البارزانية في صورتها القديمة، أي صورة المشيخة الصوفية-السياسية قادرة على إستيعاب التطورات الحاصلة داخل الحركة القومية الكُردية.

وما زاد من تفاصيل هذه الصورة أن شريحة المثقفين والمتنورين والطلاب والضباط الكُرد وأهالي المدن والحرفيين أخذت تشارك في شكل أوسع في

(٨٦) حزب شورش هو الحزب الشيوعي في كُردستان العراق، تأسس في خريف ١٩٤٥ وعُرف بإسم جريدته المركزية (شورش)، ومن مؤسسيه صالح الحيدري ورشيد عبدالقادر ونافع يونس. أما حزب (رزگاري) فإنه تأسس بمبادرة من حزب شورش في نهاية ١٩٤٥ ومن مؤسسيه علي حمدي والدكتور جعفر محمد كريم والمحامي رشيد باجلان.

(٨٧) أصدرت منظمة (ژ.ك) مجلة (نيشتمان – الوطن) في مهاباد. وعلى رغم ان هذه المجلة الثقافية والسياسية كانت توزع سراً، إلا أن تأثيرها كان كبيراً في نشر الوعي القومي بين الكُرد خصوصاً في إيران والعراق.

(٨٨) حبيب، بدران أحمد، بارزاني وجمهورية مهاباد، برنامج تاريخي في ذكرى الجمهورية الكُردية بثته القناة الفضائية لتلفزيون كُردستان، الأول من آذار عام ١٩٩٨ .

الحياة السياسية والقومية. وكانت الحرب العالمية الثانية مع ما تمخض عنها من زيادة إنتشار ثقافتي الحداثة الغربية والشيوعية الشرقية في الشرق الأوسط، ذات تأثير لافت في تشديد النهم الثقافي والمعرفي بين الشباب المديني الكُردي. هذا إضافة الى توسع الدولة في بناء المؤسسات التعليمية والمدارس والطرق المبلطة ومظاهر الحياة العصرية الحديثة في المدن الكبيرة على رغم قلّة عددها في كُردستان مقارنة ببقية المناطق العراقية.

لكن المشكلة التي واجهت بارزاني في هذه الفترة أنه كان منفياً مع عائلته وعشيرته في السليمانية. وكانت السلطات العراقية تفرض رقابة صارمة على تحركاته وتنقلاته. بل إنها لم تتوانَ عن التخطيط لقتله. لكنه مع هذا، تحرك لإنقاذ حركة شعبه القومية من تراجعاتها وأحوالها السيئة. وما ميّز تحركاته في جولتها الجديدة أنها شكّلت إحدى أهم محطات الحياة السياسية للكُرد من جهة برنامجها السياسي وتكوينها الداخلي المنظم ومطالبها القومية الواضحة.

إنتفاضة بارزان ١٩٤٣ – ١٩٤٥

في الثاني عشر من تموز ١٩٤٣ غادر بارزاني مدينة السليمانية متخفياً بمساعدة من حزب هيوا والشيخ لطيف، نجل الشيخ محمود الحفيد. وفي بدء خروجه توجّه سراً الى كُردستان إيران ومنها إنتقل الى بارزان بعد لقائه رؤساء عشائر كُرد.

والأرجح أن هدف بارزاني من ترك حياة المنافي والتوجه الى الجبال كان واضحاً في ذهنه. فالحرب فتحت الأبواب، ولم يعد أمام الكُرد سوى خيار العمل لتأكيد ذاتيتهم السياسية وطموحاتهم في الحصول على حقوق أضاعوها في وقت سابق. والأرجح كذلك أن الخيار العسكري لم يحظ بالأولوية لديه، مفضلاً إقناع بغداد على حل سلمي للمشكلة الكُردية.

بعد وصوله الى منطقته بادر الى الإتصال بالحكومة العراقية عن طريق مدير ناحية (ميرگەسور) القريبة من بارزان، عارضاً عليها البحث في حل سلمي للمشكلة الكُردية. لكن بغداد التي فاجأها هروب بارزاني وظهوره في منطقته الجبلية، تجاهلت دعوته، وسارعت الى نقل الشيخ أحمد وبقية البارزانيين من

منفاهم في السليمانية الى مدينة الحلة في وسط العراق. كما بدأت بحشد قوات الجيش والشرطة في شمال أربيل وشمالي شرق الموصل بهدف مهاجمة المقاتلين البارزانيين.

تريث بارزاني في إعلان الإنتفاضة المسلحة. بل فضّل التشاور مع القوى والشخصيات السياسية الكُردية قبل إعلانها. ويذكر مسعود بارزاني أن والده لم يلجأ الى الخيار العسكري بقرار فردي، إنما تداول في الأمر مع حزب هيوا وعدد من الشخصيات الكُردية(٨٩). وبعد يأسه من أي رد فعل سياسي من بغداد، إتجه الى الإتفاق مع حزب هيوا وأطلق إنتفاضته التي سجلت في وقت قياسي إنتصارات لافتة على القوات العسكرية والوحدات الإدارية العراقية في أطراف بارزان.

إستمرت الإنتفاضة أكثر من عامين، وإستطاعت خلالها أن تفرض سيطرتها على رقعة جغرافية كبيرة في أقصى شمال أربيل، مهددة بالسيطرة على طريق هاملتون(٩٠) والتوسع نحو مناطق خارج جبال بارزان. لكن البريطانيين الذين حرصوا على حفظ الأوضاع داخل العراق في صورة هادئة وذلك لتمكين بغداد من التفرغ لدعم المجهود الحربي البريطاني في الحرب العالمية الثانية، لم ترق لهم انتصارات الإنتفاضة الكُردية. لذلك توجه السفير البريطاني في بغداد كيهان كورنواليس الى كُردستان وإلتقى بارزاني وناشده الإتفاق مع الحكومة العراقية. كما أن رئيس الوزراء العراقي نوري السعيد أرسل عن طريق الشيخ أحمد بارزاني رسالة اليه في المعنى نفسه(٩١).

ردّ بارزاني هذه الجهود لكونها لاتتضمن تلبية المطالب القومية الكُردية، إنما تكتفي بوعود مفادها الإفراج عن البارزانيين المنفيين. وكان بارزاني أعلن في هذه الفترة مطالب سياسية قومية مفادها تلبية المطامح الكُردية في إطار الدولة العراقية.

(٨٩) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ٨٣.
(٩٠) طريق استراتيجي بناه الإنگليز في عام ١٩٢٧، يربط مدينة أربيل بالحدود الإيرانية في حاج عمران. وإشتهر الطريق بإسم مهندسه الإنگليزي هاملتون.
(٩١) وثائق إسناد فارسي صفحة ١٣١ .

عاودت بريطانيا جهودها وطلبت من الحكومة العراقية الدخول في مفاوضات سياسية مع بارزاني(٩٢). في غضون ذلك وجّه الوصي الأمير عبدالإله رسالة الى رئيس الوزراء أكد فيها إستعداده لملاقاة بارزاني والبحث معه في مطالبه السياسية، مشيراً الى ضرورة دخول الحكومة في مفاوضات مباشرة معه. بل إنه أشار الى إستعداده الشخصي لزيارة كُردستان وملاقاة بارزاني(٩٣). عادت السفارة البريطانية وبعثت برسالة أخرى الى بارزاني. والأرجح أن الأنجليز كانوا في صدد تهدئة الجبهة الداخلية للعراق تحسباً لمسارات الحرب العالمية الثانية.

في هذه الفترة، إضطر نوري السعيد الى تقديم استقالة وزارته السابعة في التاسع عشر من كانون الأول ١٩٤٣، أي بعد مدة قصيرة من إندلاع إنتفاضة بارزان. وحين أعاد تشكيل حكومته الثامنة بعد ستة أيام من الإستقالة أدخل في تشكيلته الوزارية الجديدة ثلاثة وزراء كُرد بينهم الشخصية الكُردية ماجد مصطفى الذي كلّفه السعيد الإتصال ببارزاني لإجراء محادثات معه وتخفيف حدّة التوتر بينه وبين الحكومة العراقية(٩٤).

زار ماجد مصطفى ناحية (ميرگەسور) القريبة من بارزان وإلتقى في السابع من كانون الثاني ١٩٤٤ بالزعيم الكُردي، مبدياً إستعداد بغداد للدخول في عملية تفاوضية مباشرة. وكان بارزاني قبل ذلك بأيام أوقف قتاله ضد الحكومة العراقية بناء على إقتراح بريطاني(٩٥).

عرض المبعوث الحكومي على بارزاني الكفّ عن نشاطاته العسكرية مقابل قيام الحكومة العراقية بالإفراج عن العوائل البارزانية المنفية الى مدينة الحلة وإعادتهم الى مواطنهم. لكن بارزاني الذي كان على إتصال وثيق مع حزب هيوا والضباط القوميين الكُرد، لم يوافق على العرض على إعتبار أنه غير كاف لوقف إنتفاضته التي قامت من أجل أهداف كُردية وليست عشائرية، مشيراً الى أن الحل السلمي للقضية الكُردية يجب أن يتضمن تحقيق مطالب

(٩٢) المصدر أعلاه، صفحة ١٣١.
(٩٣) وثائق إسناد فارسى: المصدر نفسه، صفحة ١٣١.
(٩٤) الحسني، عبدالرزاق: تاريخ الوزارات العراقية، الجزء السادس، صفحة ٢٩٠.
(٩٥) المصدر أعلاه، صفحة ٢٩٠.

قومية وسياسية وثقافية. أما الإفراج عن المنفيين فلم يعتبره سوى بادرة حُسن نيّة لفتح باب محادثات سياسية لحل المشكلة الكُردية برمتها في العراق.

من هنا، وضع الزعيم الكُردي أمام المندوب الحكومي عدداً من المطالب السياسية، منها إعادة تنظيم الهيكل الإداري لكُردستان العراق على اساس توحيد مدنها وقصباتها (كركوك وأربيل والسليمانية والأقضية الكُردية في لوائي الموصل وديالى) في ولاية إدارية واحدة، والإعتراف باللغة الكُردية لغة رسمية وتعيين ضباط كُرد في المنطقة لتنسيق العلاقات على صعيد إدارة شؤون ولاية كُردستان، إضافة الى تعيين وزير كُردي مختص بالشؤون الكُردية[٩٦].

لم يستطع الوزير العراقي البتّ في المطالب الكُردية، إنما حملها الى بغداد. في غضون ذلك، إقترح السفير البريطاني كورنواليس في رسالة وجهها الى نوري السعيد تشكيل هيئة من الأعضاء الكُرد في البرلمان العراقي للبحث في شؤون تطوير وتعمير كُردستان العراق.

في هذه الأثناء، وبناءً على دعوة رسمية حكومية، وصل بارزاني الى بغداد في الثاني والعشرين من شباط ١٩٤٤، حيث إلتقى الوصي عبدالإله ورئيس الوزراء نوري السعيد وأجرى معهما مباحثات سياسية مكثفة.

تمخضت المحادثات التي كان يستشير فيها بارزاني كُرداً متنورين من حزب هيوا، عن إتفاق تم بموجبه تعيين عدد من الضباط الكُرد كضباط إتصال في مناطق كُردستان. كما أفرجت الحكومة عن العوائل المنفية وأعادتهم الى بارزان بعد أسابيع.

والأرجح أن نوري السعيد كان في طريقه الى تلبية عدد من المطالب الإدارية الكُردية في شكل سلمي وعن طريق الحوار مع بارزاني. لكن المشكلة أن مفاوضاته مع الكُرد سرعان ما إنقطعت نتيجة سقوط حكومته في الثالث من حزيران ١٩٤٤. كما أن البريطانيين بدأوا لايبدون حماساً لمواصلة المباحثات السياسية مع بارزاني نتيجة ميلان كفّة الحرب الثانية لمصلحتهم في تلك الفترة.

(٩٦) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٠١.

لهذا، لم يولِ حمدي الباججي الذي قام بتشكيل وزارته الأولى بعد استقالة وزارة السعيد، إهتماماً بحلّ القضية الكُردية على رغم أن رئيس الوزراء السابق حرص قبل مغادرته رئاسة الحكومة على توجيه مذكرة الى الوصي عبدالإله، عنونها (القضية الكُردية) دعا فيها الى حل المشكلة مع الكُرد في شكل سلمي[٩٧].

بعد مباشرة وزارة الباججي أعمالها عاد القتال الى كُردستان العراق. لكن الحركة القومية الكُردية شهدت في تلك الفترة إتساعاً في نشاطاتها التنظيمية والسياسية، خصوصاً أن الوطنيين الكُرد في حزب هيوا وخارجه اعتبروا حركة بارزاني عادلة وقرروا المشاركة فيها بإعتبارها حركة وطنية وقومية كُردية[٩٨].

واصلت إنتفاضة بارزان توسيع نفوذها في مناطق كُردية عدة في ١٩٤٥. لكن السفارة البريطانية في بغداد أخذت في هذه الفترة التي أشّرت الى إنتصارها على جبهة الحرب ضد النازية، تتجه نحو تقديم دعم عسكري وسياسي الى الحكومة العراقية. هذا على رغم أن قائد الوحدات البريطانية في العراق عارض في البداية المشاركة مع القوات العراقية في الهجوم على منطقة بارزان، مفضلاً أن تتجه الحكومة الى حل مشكلتها مع البارزانيين عبر المفاوضات السياسية.

والواقع أن مخاوف بريطانيا من الإنتفاضة تفاقمت في شكل كبير بعد أن هدد بارزاني بفرض سيطرته على طريق هاملتون الاستراتيجي. وكانت بريطانيا تعتقد أن تطوراً كهذا لايعني سوى إعلان الحرب على المصالح البريطانية.

لم تتوقف الحكومتان البريطانية والعراقية عن تحضيراتهما لشن هجوم عسكري جديد ضد بارزان. وفي هذا الإطار توجها أيضاً الى تشجيع عدد من رؤساء العشائر الكُرد للتعاون معهما ضد الحركة الكُردية. وكان بعض من هؤلاء، على خلافات سابقة مع العشيرة البارزانية لأسباب سبق ذكرها.

(٩٧) الحسني، المصدر نفسه، صفحة ١٩٨، الجزء السادس.
(٩٨) الحسني، المصدر أعلاه، صفحة ٢٩٠ .

نجحت الدولتان في صيف عام ١٩٤٥ في إقناع عدد من العشائر الكُردية بالتعاون معهما في القتال ضد الإنتفاضة. وينقل مسعود بارزاني عن والده أن الأخير حين وجد أن عشائر كُردية دخلت على خط صراعه مع بغداد، قرر الإنسحاب الى داخل إيران، مفضلاً تجميد الصراع العسكري مع بغداد على تحوله الى قتال كُردي-كُردي.

الواضح أن الحكومة العراقية لم تستطع أن تنسق مع الإيرانيين على صعيد منع البارزانيين من دخول الأراضي الإيرانية، وذلك بسبب الضعف الهائل الذي كانت الدولة الإيرانية تعيشه في تلك الفترة، وإنحسار نفوذها عن مناطق كُردية واسعة في غرب البلاد. لهذا بادرت بغداد، بعد أقل من عام، الى عقد إتفاقية أمنية مع تركيا في ١٩٤٦، أي في الوقت الذي كانت جمهورية مهاباد قد قامت في إيران.

مع هذا كلّه، كانت تأثيرات إنتفاضة بارزان كبيرة على مسار الحركة القومية الكُردية برمتها. في هذا المنحى يمكن القول إنها أخرجت الحركة الكُردية من نطاقها المناطقي العشائري الضيّق وأطلقتها في فضاء قومي رحب يضم فئات وشرائح إجتماعية ودينية متنوعة. وتجلى ذلك في إلتفاف ضباط ومتنورين ومعلمين وطلبة حولها بعد أن كانت ميادينها محتكرة في السابق على الفلاحين وأتباع العشائر. ويروي المرحوم نوري شاويس في مذكراته أن معظم الضباط الكُرد الذين إنضموا الى صفوف الإنتفاضة كانوا أعضاء في حزب (هيوا)[٩٩].

ويصح الشيء نفسه بالنسبة الى البُعد الجغرافي للإنتفاضة التي نجحت في إختراق حدود بارزان ونشر دعواتها خارج هذه الحدود. وكانت المشاركة الكُردية العراقية في جمهورية مهاباد مثالاً ساطعاً على تلك الحال.

الى ذلك، أغنت الإنتفاضة محتوى الحركة الكُردية وعمّقت من مفاهيمها الديموقراطية والسياسية وأعطتها سمة عصرية واضحة. ويذكر بارزاني نفسه، في كلمة ألقاها في مؤتمر ممثلي كُرد إيران والعراق في باكو في التاسع عشر من كانون الثاني ١٩٤٨، أن هدف إنتفاضته كان إنشاء إدارة حرة

(٩٩) شاويس، المصدر نفسه، صفحة ٢٢.

وديموقراطية[١٠٠].

على صعيد آخر، استطاعت الإنتفاضة أن تنقل الحركة الكُردية من إطار عسكري بحت الى نشاطات سياسية تنظيمية مترابطة ومتداخلة. ولا أدل على هذا من الإشارة الى تأسيس لجنة بإسم لجنة الحرية في العام الأول للإنتفاضة لقيادتها. وكان قوامها الضباط الكُرد الذين إلتفوا حول بارزاني.

كذلك أوجدت الإنتفاضة أسلوباً عسكريا حديثاً إعتمد في إدارة العمليات الحربية على توزيع المقاتلين في شكل مجموعات صغيرة ترتبط بمسؤولين يتولون قيادة مناطق محددة ويرتبطون بدورهم بمركز قيادي واحد.

على صعيد ذي صلة، أخذ بارزاني يولي إهتماماً من خلال تطوير إنتفاضته، ببناء شبكة إتصالات ناشطة بينه وبين المدن الكُردية وغير الكُردية في العراق. وفي هذا الصدد، يذكر فؤاد عارف أن بيانات مؤيدة للإنتفاضة بدأت تظهر في شوارع بغداد[١٠١].

علاوة على هذا، أخذ يعمل من أجل إخراج الحركة القومية الكُردية عن إطارها المحلي الداخلي العراقي الى إطار إقليمي ودولي. والواقع أن جهد بارزاني على هذا الصعيد تمخض عن لقائه في منطقة حدودية قريبة من إيران بمندوب سوڤياتي زار المنطقة[١٠٢]، إضافة الى نجاحه في إجبار البريطانيين على الإتصال بالإنتفاضة ومحاولة إقناع بغداد بإيجاد حل سلمّي لمطالب الكُرد السياسية.

لكن الأهم من ذلك كلّه أن إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ نجحت في منح الحركة القومية الكُردية داخل العراق بُعداً سياسياً واضحاً بعد عقدين من محاولات الحكومة العراقية إنكار هذا البُعد وعدم الإلتفات الى أهمية حلّ القضية الكُردية على اساس من الحوار والمحادثات المتبادلة.

(١٠٠) بارزاني، المصدر نفسه، صفحة ١٩٧
(١٠١) عارف، المصدر أعلاه، ص ١٣٢
(١٠٢) مقابلة مع مسعود بارزاني في ٢٠٠٠/٨/١٢.

البارزانيون في كُردستان إيران

حين إنتهت الحرب العالمية الثانية في صيف ١٩٤٥ بهزيمة دول المحور وإنتصار الحلفاء، كانت القوات السوڤياتية والبريطانية لاتزال في شمال إيران وجنوبها. وكانت قبضة طهران ضعفت الى درجة كبيرة في المنطقة الكُردية الواقعة بين الجيشين السوڤياتي والبريطاني في غرب إيران، خصوصاً بعد تنازل الشاه رضا بهلوي في السادس عشر من أيلول ١٩٤١ عن العرش لإبنه محمد رضا بهلوي. وكان هذا الأمر في حد ذاته كافياً لتشجيع السكان، خصوصاً في مهاباد وأطرافها، على إستثمار الفرصة في إتجاه الحصول على مكسب قومي. وكانت إنتفاضة بارزان في العراق أسهمت في شكل كبير في تنشيط الشعور القومي بينهم.

في هذه الفترة التي نشطت فيها (ژ.ك)[١٠٣] في مهاباد وأطرافها، إختار بارزاني أن ينسحب في الحادي عشر من تشرين الأول ١٩٤٥ مع قواته الى أطراف قصبة شنو لوضع قدراته العسكرية ومقاتليه تحت تصرف الحركة القومية الكُردية في الجانب الإيراني من الحدود. وكان إتصل قبل ذلك بـ(ژ.ك). والواقع أن خطوته هذه مثلت محاولة ذكية لمنع الحركة القومية الكُردية في العراق من الوقوع في مهاوي إنتكاسة نفسية وسياسية كبيرة إثر إنسحاب مقاتلي إنتفاضة ١٩٤٥ الى كُردستان إيران.

أنعش وجود البارزانيين في مهاباد الحماس القومي الكُردي في كُردستان إيران، كذلك في العراق. ويؤكد الباحث الأميركي آرتشي روزفلت[١٠٤] أن وجود بارزاني في مهاباد مع مقاتليه[١٠٥] كان له دور أساسي في تشجيع كُرد

(١٠٣) تأسست جمعية (ژ.ك) في صيف ١٩٤٢ في مدينة مهاباد. والإسم مختصر (ژيانەوەى كورد) أي (إحياء الكرد).

(١٠٤) The Kurdish Republic of Mahabad, Archie Roosevelt Jnr. An articale in People without Country, The Kurds and Kurdistan, Edited by Gerard Chaliand, Translated by Michael Pallis, Zrd Book, 1980, London, P 150-135.

ظهر هذا البحث لأول مرة في مجلة The Middle East Journal, Washington, 3, 1 July, 1947.

(١٠٥) بلغ عدد المقاتلين البارزانيين في صفوف جمهورية مهاباد، نحو ١٥٠٠ مقاتل مع أسلحتهم.

إيران على إعلان جمهورية مهاباد في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٦.

والواقع أن كُرد العراق حملوا في دواخلهم في تلك الفترة مرارة عميقة من إنهيار الكيانين الكُرديين المستقلين اللذين أسسهما الشيخ محمود الحفيد في السليمانية في ١٩١٩ و١٩٢٣. لهذا تطلعوا بعيون ملؤها الأمل الى أن ينجح الكيان المهابادي في إعادة تحقيق أملهم الضائع.

اللافت في نشاطات بارزاني السياسية أنها لم تقتصر على قيادة القوات العسكرية للجمهورية فحسب، بل شملت، في الوقت نفسه، الإحتفاظ بصلات قوية مع الحركة السياسية الكُردية في العراق. وما ساعده في ذلك أن عدداً من الضباط ورؤساء العشائر والوجهاء والمتنورين الكُرد من كُردستان العراق إلتحقوا بجمهورية مهاباد وأخذوا يعملون تحت قيادته. وكان من أبرز هؤلاء، الضباط الأربعة الذين أعدمتهم بغداد لاحقاً: عزت عبدالعزيز ومصطفى خوشناو وخيرالله عبدالكريم ومحمد قدسي، إضافة الى مير حاج وحمزة عبدالله ونوري أحمد طه وجلال أمين وعبدالرحمن النقيب ووهاب محمد آغا.

في هذه الأثناء أحسّ بارزاني أن التطور الحاصل في بنية الحركة القومية الكُردية في العراق أصبح يقتضي وجود حزب ديموقراطي لقيادة العمل القومي الكُردي بالإعتماد على المجموعة العسكرية والمدنية الموجودة معه في مهاباد. لهذا بادر في مهاباد في شباط ١٩٤٦ الى تأسيس حزب بإسم الحزب الديموقراطي الكُردي[١٠٦]. لكن بعد فترة وجيزة، يبدو أنه وجد الخطوة المهمة هي في تأسيس الحزب داخل كُردستان العراق وليس في خارجه.

لهذا بادر الى وقف نشاطات حزبه، وإيفاد أحد مساعديه السياسيين، حمزة عبدالله، الى كُردستان العراق حاملاً رسائل منه الى قادة منظمتي شورش ورزگاري وشخصيات قومية مستقلة ورؤساء عشائر يحثّهم فيها على تأسيس حزب ديموقراطي لقيادة العمل القومي الكُردي في العراق. وكان تقديره أن هذه

(١٠٦) العقيد حويزي، بكر عبدالكريم: جولة في جمهورية مهاباد، مذكراتي في شرق كردستان (باللغة الكردية)، دار ئاراس للطباعة والنشر، كُردستان، أربيل ٢٠٠١، صفحة ٣٧.

الحركة دخلت بعد إنتفاضة ١٩٤٣-١٩٤٥ وجمهورية مهاباد في ١٩٤٦، مرحلة متقدمة في بنيتها السياسية والفكرية، وأن الضرورة أصبحت تقضي وجود حزب سياسي، عصري في تنظيمه وأفكاره وشعاراته وأساليب عمله، لقيادة الحركة القومية الكُردية.

بعد مشاورات صعبة أجراها عبدالله في بغداد والسليمانية تم إعلان تأسيس الحزب في مؤتمر عقده مجموعة ممن لبَّوا نداء بارزاني في السادس عشر من آب ١٩٤٦ في بغداد. وأسفر المؤتمر عن إعلان الحزب وإنتخاب بارزاني بالإجماع رئيساً. والحقيقة التي يتفق كثير من الكُرد حولها أن تأسيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني كان إنتقالة نوعية كبيرة في حياة الكُرد السياسية في القرن العشرين.

لكن المشكلة أن جمهورية مهاباد التي نشأت بتشجيع سوڤياتي مباشر، وبالتوافق مع جمهورية آذربايجان الشيوعية في شمال إيران، لم تعش طويلاً، إذ إنهارت في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٤٦ نتيجة تقاطع المصالح الدولية، الشرقية والغربية في إيران في الفترة التي أعقبت إنتهاء الحرب العالمية الثانية[١٠٧]. وكانت هذه الفترة هي الوعاء الذي نضجت فيه بعد سنوات عوامل الحرب الباردة.

أدى البارزانيون دوراً اساسياً في جمهورية مهاباد منذ إنشائها. فإضافة الى تولي بارزاني قيادة قواتها المسلحة برتبة جنرال، دافع مع رجاله بقوة وشجاعة عن الجمهورية في جبهات القتال في أطراف مدينة سقز[١٠٨].

(١٠٧) يرى الصحافي الفرنسي رينيه موريبس أن روسيا التي كانت اليد الداعمة وراء جمهوريتي اذربيحان ومهاباد قايضتهما بإتفاق نفطي مع طهران. أنظر: موريبس، رينيه: كُردستان أو الموت، ترجمة وتعليق جرجيس فتح الله، الطبعة الثانية، دار ئاراس للطباعة والنشر، مطبعة وزارة التربية، أربيل، كُردستان ١٩٩٩ ص٤٧.

(١٠٨) أنظر: وليم إيگلتن الابن، جمهورية مهاباد، جمهورية ١٩٤٦ الكُردية، ترجمة جرجيس فتح الله، دار ئاراس للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، أربيل - ١٩٩٩ . أنظر كذلك: من مهاباد الدامية الى ضفاف ئاراس، تأليف نجف قولي بسيان، ترجمه من الفارسية الى الكُردية شوكت شيخ يزدين، ومن الكُردية الى العربية تيلي أمين، دهوك، مطبعة خبات، ١٩٩٧.

وبعد سقوط مهاباد بعد أقلّ من عام على قيامها، قرر بارزاني بالتشاور مع الشيخ أحمد أن يعود الأخير في صحبة العوائل والأطفال والشيوخ البارزانيين الى العراق، وأن يظل من يريد من المقاتلين معه للتوجه الى الإتحاد السوڤياتي بشقّ طريقهم نحو الحدود السوڤياتية عن طريق القتال والمقاومة.

عاد الشيخ أحمد الى العراق عبر بوابة (كيله شين) مع العوائل البارزانية في نيسان ١٩٤٧ حيث ألقت السلطات الحكومية القبض عليه وعلى جميع العوائل، ونفتهم الى البصرة في جنوب العراق، مع إبقاء الشيخ أحمد نفسه وعبيدالله (١٩٢٧-١٩٨٠)[١٠٩] نجل مصطفى بارزاني الأكبر وصادق نجل شيخ بابو شقيق الشيخ أحمد، في سجن بغداد المركزي. وبعد فترة قصيرة أصدرت المحاكم العراقية في حقهم حكم الإعدام. لكنها غيّرت الحكم لاحقاً الى السجن المؤبد، ونقلت عوائلهم الى الموصل ومنها الى بغداد والحلة وكركوك والسليمانية، حيث ظلوا يتنقلون من منفى الى منفى الى تموز ١٩٥٨[١١٠].

في الفترة نفسها عاد الضباط الكُرد الأربعة وسلّموا أنفسهم الى السلطات العراقية على رغم محاولة بارزاني ثنيهم عن هذا القرار. لكن الحكومة إعتقلتهم، ولم تمض مدة طويلة حتى أصدرت محكمة عسكرية عراقية في حقهم أحكاماً بالإعدام تم تنفيذها في التاسع عشر من حزيران ١٩٤٧.

والواقع أن سقوط جمهورية مهاباد كان في حد ذاته ضربة مؤلمة لحقت بالحركة القومية الكُردية. لكن بارزاني الذي كان حريصاً على منع الإنعكاس السلبي للنكسات التي تتعرض لها إنتفاضاته، حاول منع تحول إنهيار الجمهورية الى كارثة قومية أخرى. وكان طريقه لإنجاز هذا المنع، هو رفضه الإستسلام لأي من الحكومات العراقية أو الإيرانية أو التركية، وقراره مقاومة القوات العسكرية للدول الثلاث، ومن ثم الإنتقال مع مقاتليه بعد مسيرة قتالية راجلة، الى الإتحاد السوڤياتي عبر نهر ئاراس الحدودي في مثلث الحدود السوڤياتية التركية الإيرانية[١١١].

(١٠٩) أعدمته السلطات العراقية في بداية الحرب العراقية الإيرانية في ١٩٨٠

(١١٠) مقابلة مع مسعود بارزاني في صلاح الدين في ١٢ آب عام ٢٠٠٠.

تعرضت هذه المسيرة الى قصف الطائرات الحربية التابعة للدول الثلاث وتخللتها صدامات عسكرية عدة وأيام عصيبة، لكنها نجحت في الوصول الى هدفها، وأسهمت لاحقاً في شكل عميق في تغذية الذهن القومي الكُردي بتطلعات جديدة من الأمل والتفاؤل. والأكثر أنها أذكت الحماس في نفوس الشباب الكُردي وأججت مشاعرهم، ما أفضى الى أن يصبح سقوط مهاباد ومسيرة البارزانيين الى الإتحاد السوڤياتي بداية مرحلة جديدة في العمل القومي الكُردي. ولا أدل على ذلك من معرفة أن مسيرة بارزاني في ١٩٤٧ تحولت، أكثر من أي موضوع كُردي آخر، الى مادة غنّية للقصائد والملاحم الشعرية والأغاني الكُردية.

بارزاني بعد عودته الى العراق

عاد مصطفى بارزاني من منفاه في الإتحاد السوڤياتي في السادس من تشرين الأول ١٩٥٨ أي بعد أقل من ثلاثة اشهر من قيام الجنرال عبدالكريم قاسم بثورته في صباح الرابع عشر من تموز من العام نفسه. وكان الزعيم الكُردي غادر موسكو في الحادي والعشرين من أب من العام ذاته متوجهاً الى بخارست برفقة زميليه ميرحاج أحمد وأسعد خوشوي، حيث إستقبله الرئيس الروماني بترحاب وحفاوة. ثم أرسل بارزاني من العاصمة الرومانية برقية تهنئة الى عبدالكريم قاسم عن طريق السفارة المصرية بمناسبة نجاح الثورة، غادر بعدها الى براغ حيث إستقبله الرئيس التشيكوسلوفاكي، يومذاك، أنطوني نوفوتني الذي ظلّ محتفظاً بعلاقة صداقة مع بارزاني حتى آخر أيام حياته.

في التاسع والعشرين من الشهر نفسه، وجّه بارزاني رسالة الى قاسم طالباً موافقته على عودته مع بقية البارزانيين المنفيين الى العراق. ردّ قاسم على الرسالة مرحباً بهم ومشيراً الى إمكان التنسيق في شأن إجراءات العودة مع السفارة المصرية لدى تشيكوسلوفاكيا.

(١١١) يصف رينيه موريبيس هذه المسيرة بأنها مأثرة بطولية ستبقى فصلاً رائعاً في تاريخ الكُرد خالداً أبد الدهر. وأنها توضع في صف مسيرة ماوتسي تونگ الكبرى. صفحة ٤٧.

والواقع أن إنهيار النظام الملكي في بغداد كان في حد ذاته بمثابة منعطف سياسي بارز في مسار الحركة القومية الكُردية. وما زاد من أهمية ذلك الإنهيار أن زعيم الثورة، الجنرال قاسم، بادر بعد فترة قصيرة من وصوله الى الحكم، الى تضمين الدستور العراقي مادة نصّت على شراكة العرب والكُرد في العراق (المادة الثالثة). ولا يني الكُرد حتى يومنا هذا، يصفون خطوة قاسم في ذلك الخصوص بأنها أعربت عن روح شجاعة.

لاحقاً، تعاظمت أهمية ثورة تموز بالنسبة الى الحركة القومية الكُردية بعدما أطلق قاسم آفاق العمل العلني أمام النشاطات الثقافية والإجتماعية والسياسية الكُردية في جوٍّ من الحرية. والواقع أن عودة بارزاني من الإتحاد السوڤياتي في صورة البطل القومي، منحت بدورها دفقاً هائلاً لإنتعاش الحركة الكُردية إن في العراق أو خارجه. وتجلى ذلك في الإستقبال الشعبي الكُردي والعراقي الحافل الذي حظي به بعد عودته.

ينقل مسعود بارزاني عن الصحفي السوڤياتي ديمنجكه الذي كان موجوداً في بغداد في تلك الفترة، وصفه للإستقبال (... وفي صباح ذلك اليوم أيقظني الضوضاء المدوي في الشوارع. طوابير من سيارات الأجرة الخفيفة المزينة بالأعلام العراقية واللافتات البيضاء كتبت عليها الشعارات باللغتين الكُردية والعربية تخترق بصعوبة حشود الجماهير، وهي تحمل مندوبين من كُردستان العراق جاءوا لإستقبال بطلهم القومي).

ويضيف ديمنجكه أن المستقبلين بدأوا سفرهم ليلاً ليصلوا في الوقت المقرر لهبوط الطائرة وهم يهتفون: عاشت الصداقة العربية الكُردية. وآلاف الناس على الأرصفة والجسور وفي شرفات البنايات يرددون الهتاف. والشعارات رفعت على مباني كثيرة على شرف قدوم مصطفى بارزاني.

لكن المشكلة أن ثورة ١٤ تموز لم تُسفر عن الديموقراطية التي دعا إليها قادتها. بل سرعان ما إنحدر العراق في ظل خوذ قادتها العسكريين الى أتون من الحكم الفردي والصراعات الداخلية، إضافة الى تعاظم حدة التوترات الآيديولوجية القومية والشيوعية في أوصالها. وكان من شأن ذلك كلّه أن يعكس تأثيرات مدمرة على تفاؤل الكُرد الذين تصوروا أن فرصتهم القومية

في ظل النظام الجديد أصبحت سانحة أكثر من أي وقت مضى.

عاد بارزاني الى العراق مسكوناً بالهمّ الكُردي. ومرّ في طريق عودته بالعاصمة المصرية القاهرة التي كانت تعيش، في ظل نشوة حرب السويس في ١٩٥٦، أوج هيجانها الآيديولوجي القومي، ودعواتها الى الوحدة والثورة ومعاداة الإستعمار.

إلتقى بارزاني بعد وصوله القاهرة بالزعيم المصري جمال عبدالناصر. وعلى رغم أن اللقاء لم يسفر عن شيء جدّي، إلا أنه أشّر الى معادلة أساسية في حساباته السياسية، تلك هي إفهام القاهرة، التي كانت تمثل معقل القومية العربية، أن الصراعات الكُردية مع الدولة العراقية، لاتهدف الى إيذاء العرب على رغم أن بغداد، حاولت إضفاء طابع عربي على حربها ضد الكُرد. وللتأكيد على ذلك، فإن الكُرد مستعدون للإندماج في النظام الديموقراطي العراقي الجديد الذي يضمن لهم حقوقهم. والواقع أن هذا الإيحاء كان ذا مغزى كبير نظراً لكون عبدالناصر في تلك الفترة أبرز معالم القومية العربية.

إستقبل الرئيس المصري الزعيم الكُردي العائد من الإتحاد السوفياتي بحفاوة بالغة. وكانت القاهرة تتطلع في الواقع الى إمكان الإستفادة من الورقة الكُردية في صراعاتها مع إيران وتركيا. وفي هذا الإتجاه لم تتردد العاصمة المصرية منذ ١٩٥٧، أي بعد حرب السويس بأقل من عام، في تخصيص إهتمام لافت بالقضية الكُردية في العراق في خضمّ صراعها مع إيران الشاهنشاهية وتركيا الأتاتوركية من جهة، والولايات المتحدة وبريطانيا وإسرائيل من جهة ثانية. ومع أن هذه الصراعات تضمنت حسابات متعلقة بالحرب الباردة والصراع بين المعسكرين الشيوعي والرأسمالي، إلا أنها عبّرت أيضاً عن تضادات واضحة بين المشاريع القومية العربية والإيرانية والتركية. والأرجح أن بارزاني كان على دراية كافية بالمصاعب التي تنتظر إدارة العمل القومي الكُردي وسط تلاطمات هذا الصراع. لهذا لم يدخر الزعيم الكُردي جهداً لمنع تحول الحركة القومية الكُردية الى ساحة للصراع الإقليمي والدولي في ذلك الشطر الزمني.

في هذا الخضّم الهائل، حرص بارزاني على حفظ الحركة الكُردية من الوقوع

في مطب الشعاراتية ولغة الخطابة الطنانة والآيديولوجيات الثورية على رغم أن الحركات القومية والشيوعية في الشرق الأوسط، خصوصاً الحركة القومية العربية، حملت في طيّاتها في تلك الفترة إستعداداً فطرياً للسقوط في ذلك المطب. وكانت مصر وتجربة عبدالناصر القومية من جهة، وسورية ومدير استخباراتها الناصري عبدالحميد السراج من جهة أخرى، أسطع الأدلة في هذا الصدد.

لكن بارزاني الذي إشتهر بين الكُرد بواقعيته وتفكيره العملي وخياله البعيد عن التنظير، لم يحرص على بناء علاقات طبيعية وتفاهم مشترك مع مراكز العمل القومي العربي خارج العراق فحسب، بل حاول، بعد عودته الى بغداد، إقامة علاقات طبيعية متينة مع النسيج العراقي، خصوصاً مع الأحزاب العراقية والحركات والعشائر والتجمعات الوطنية المتنوعة.

وكان قاسم أفرج بعد نجاح ثورته عن البارزانيين المنفيين والمسجونين في العراق. لهذا زار الشيخ أحمد بعد إطلاق سراحه من السجن، في الحادي والعشرين من تموز ١٩٥٨، وزارة الدفاع وإلتقى قاسم وهنأه بقيام العهد الجديد. أما بارزاني نفسه، فإنه إلتقى حالما عاد الى بغداد زعيم الثورة عبدالكريم قاسم. ويوضح مسعود بارزاني في كتابه أن والده إعتبر نفسه وزملاءه جنوداً للدفاع عن الجمهورية العراقية.

والأرجح أن تأييده لإنقلاب قاسم كان مبنياً على عاملين رئيسيين: أولهما المآسي والمظالم التي لحقت بالكُرد في العهد الملكي بدعم بريطاني علني وخفي، وما شكلته الأوضاع الجديدة من أمل برفعها. وثانيهما قناعة بارزاني أن زعيم الثورة جاد في حل المشكلة الكُردية عبر طرق ووسائل سياسية وسلمية. وكانت السياسة في بغداد تفتقد منذ تأسيسها الى نظرة جدية وحقيقية وواقعية لحل هذه المشكلة عبر التفاهم والحوار.

أما على الصعيد الكُردي، فحرص بارزاني في ظل الحرية التي وفّرتها ثورة تموز، على رصّ صفوف الشعب الكُردي في العراق وإعادة تنظيم الحزب الديموقراطي الكُردستاني الذي دبّت في صفوفه خلافات عميقة في فترة غيابه القسري.

إيران والكُرد: المحطة الأولى

تصح الإشارة الى أن الحكومة أخذت تتراجع منذ ١٩٥٩ عن تنفيذ وعودها للكُرد، في خطوة أشّرت الى رغبتها الرامية الى التقارب مع القوى البعثية والقومية العربية. وكانت السلطات العراقية بدأت بعرقلة نشاطات الحزب الديموقراطي وملاحقة كوادره. في ما بعد أغلقت الحكومة صحيفة (خەبات) لسان حال الحزب في أوائل عام ١٩٦١. وكانت أقصت في الفترة نفسها الوزير الكُردي اللواء فؤاد عارف من منصبه.

في هذا الشطر الزمني، وجدت طهران أن مصالحها أصبحت تقتضي التحرك صوب إستثمار الورقة الكُردية في العراق ومحاولة استيعابها وإستخدامها في وجه بغداد. وكان قاسم فتح الباب في تلك الفترة أمام النفوذ السوفياتي، وأخذ في الوقت عينه يدخل في متاهة صراع جديد مع إيران على خلفية خلافات في الحدود والمياه في شط العرب.

والواقع أن إيران في ظل الشاه محمد رضا بهلوي رأت في العراق جزءً حيوياً من أمنها الإستراتيجي، فحدودهما المشتركة التي تمتد الى أكثر من ألف كيلومتر، كانت تشكل في نقاط عدة، خصوصاً في شط العرب ومنطقتي مندلي وخانقين النفطيتين الكُرديتين، أسباباً لخلافات غير قليلة منذ التسوية التي فرضتها بريطانيا على الدولتين في إتفاقية ١٩٣٧ حول شط العرب. كما أن سماتهما المذهبية المتباينة، السنّية في العراق والشيعية في إيران، كانت تبعث على الدوام مخاوف متبادلة على رغم التشابه في علمانية النظامين.

الى تخوفاتها الكُردية والعراقية في المناطق الحدودية، كانت تعتصر طهران حساسية مفرطة من إتساع نفوذ الإتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط. فدور السوفيات في دعم جمهوريتي كُردستان وآذربيجان في شمال وشمال غربي إيران، وإنقلاب الدكتور مصدق في ١٩٥٣، كان لايزال طرياً في الذاكرة الإيرانية.

إنطلاقاً من تلك الحسابات كلّها رأت طهران في حركة السياسة في العراق وإتجاهاتها والتغييرات الحاصلة فيها، حلقة جوهرية من حلقات أمنها

الإستراتيجي. وبما أن شراكة البلدين في التحالف ضمن حلف بغداد ١٩٥٥ وقبله ميثاق سعد آباد (١٩٣٧) كانت تضمن دوام الإستقرار الحاصل في بنية علاقاتهما الأمنية والسياسية والعسكرية، فإن إيران لم تشعر بأي تهديد نابع من حدودها الغربية. لكن إنتهاء حرب السويس عام ١٩٥٦ وبروز دور الإتجاهات القومية العربية عبر مصر وسورية وتحالفاتهما الدولية التي مهّدت لتوغل السوفيات في مشكلات الشرق الأوسط، أثارت مخاوف حقيقية في طهران.

والواقع أن التوجه الإيراني نحو الخيار الكُردي أملاه يقين الإيرانيين أن نظراءهم من شيعة العراق تحولوا الى تأييد قاسم نظراً لأصوله المذهبية الشيعية، ووعوده برفع التمييز الطائفي عنهم. هذا في حين أدت التصفية الدموية للعائلة المالكة في صبيحة ١٤ تموز ١٩٥٨ الى تشتت شمل الضباط الملكيين وهروبهم الى لبنان والأردن وبريطانيا وصعوبة الإستفادة منهم في إعاقة تجربة قاسم. وفي هذا الوسط لم يظل أمام طهران من خيار لتطبيق خطته المتعلقة بإطاحة زعيم الإنقلاب العراقي سوى اللجوء الى الكُرد(١١٢).

لكن المشكلة، في هذا الإطار، أن طهران لم تكن تنظر بودّية الى بارزاني نتيجة دوره في جمهورية مهاباد وأحكام الإعدام الصادرة في حقه من المحاكم الإيرانية، إضافة الى إقامته الطويلة في الإتحاد السوفياتي لاجئاً. وما زاد من مخاوف إيران من بارزاني أنه زار في الخامس عشر من تشرين الأول ١٩٦٠ موسكو بناء على دعوة رسمية للمشاركة في إحتفالات ثورة أكتوبر. وإستقبله هناك كبار المسؤولين السوفيات بمن فيهم الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي نيكيتا خروتشوف.

وينقل مسعود بارزاني عن تصريحات لنائب رئيس الوزراء رئيس جهاز (ساواك) الأمن الإيراني الشاهنشاهي الجنرال تيمور بختيار، في نهاية الخمسينات، في تصريحاته الى صحف إيرانية أن الوضع في كُردستان غير مضمون والحكومة الإيرانية تراقب مصطفى بارزاني الذي زار القاهرة والموجود

(١١٢) لتفاصيل أكثر حول العلاقات الكردية الإيرانية أنظر: شورش، سامي: تنوع الكرد في العراق، مدخل الى السياسة، أربيل، دار ئاراس للطباعة والنشر، ٢٠٠٠.

حالياً في بغداد لتحريض الكُرد، يعاونه السوڤيات في ذلك.

كذلك يشير رئيس الحزب الديموقراطي الكُردستاني في كتابه الى مقال نشرته مجلة (ترقي) الإيرانية في عددها ٨٣١ الصادر في الخامس عشر من كانون الأول ١٩٥٨ تحت عنوان (العراق، مركز التآمر ضد إيران) تضمن هجوماً شديداً على بارزاني والحكومة العراقية لسماحها له بالعودة.

لكن نائب الملحق العسكري في السفارة الإيرانية في بغداد، المسؤول عن ملف (العراق) و(الكُرد)، آنذاك، العقيد الركن عيسى بزمان، كان نجح في إقامة علاقات مع أعضاء قياديين في الحزب الديموقراطي الكُردستاني من أمثال إبراهيم أحمد. لذلك إقترح على الشاه في إحدى لقاءاته معه، التعاون مع هؤلاء من دون العودة الى بارزاني نفسه(١١٣).

غير أن الضغوط كانت كبيرة على الحركة القومية الكُردية في إتجاه تفجيرها على شكل عسكري. وكانت هذه الضغوط تنطلق من مصادر رئيسية عدة:

الأول: إيران التي كانت تعمل على خلق العراقيل أمام حكومة عبدالكريم قاسم بهدف إطاحتها.

والثاني: الأحزاب والإتجاهات القومية العربية التي بدأت تلتف حول قاسم في الظاهر، لكنها تعمل في الخفاء من أجل إطاحته. وكان بين هؤلاء عناصر من حزب البعث والقوميين العرب والعناصر العسكرية المحسوبة على سورية ومصر، ممن لم يحبذوا تمتع الكُرد بحقوق قومية في إطار العراق.

لكن الأسوأ من هذا كلّه أن الحكومة العراقية شكّلت بدورها مصدراً ثالثاً للضغط على الحركة الكُردية، إذ بدأت تتراجع كلياً عن وعودها الخاصة بإقرار الحقوق الكُردية.

في هذه الأثناء عاد بارزاني من موسكو بعد تلبيته لدعوة رسمية للمشاركة

(١١٣) في هذا الخصوص أنظر: بزمان، عيسى: أسرار عقد إتفاقية الجزائر ١٩٧٥، من الملفات السرية لجهاز ساواك الأمني الإيراني، باريس ١٩٩٢ .

في إحتفالات ثورة أكتوبر. لكنه لم يستقر في بغداد، إنما غادرها في أوائل آذار ١٩٦١ متوجهاً الى قريته بارزان للإقامة فيها. ورغم أن بغداد توجست من تركه العاصمة وزيارته، قبل ذلك، موسكو ولقائه بكبار المسؤولين السوڤيات، إلا أن الأرجح أن إنتقاله الى مسقط رأسه لم يهدف، في الحقيقة، سوى الى إبداء الإمتعاض من الطريقة التي تتعامل بها السلطات العراقية مع القضية الكُردية.

لاتتوفر أدلة ومعطيات تشير الى رغبة بارزاني في الإلتجاء الى الخيار العسكري لإجبار حكومة قاسم على وقف تجاوزاتها ضد الكُرد، عدا مغادرته بغداد وإستقراره في مسقط رأسه. لكن الواضح أن الحكومة العراقية أدركت إستحالة القضاء على الحركة القومية الكُردية المتنامية من دون القضاء أولاً على زعيمها بارزاني.

لهذا شرعت الحكومة العراقية عملاً دؤوباً من أجل القضاء على الزعامة الشرعية الكُردية ممثلة ببارزاني. وكانت إشارة البدء على هذا الطريق هي قيام طائرات حربية عراقية بالإغارة على قرية بارزان في السادس عشر من أيلول ١٩٦١. لكن الغارة لم تسفر سوى عن أضرار طفيفة لحقت بالمدنيين. أما بارزاني نفسه فقد بدأ جولة في منطقة بهدينان شمال الموصل بهدف تعبئة العشائر للإنتفاض ضد الحكومة العراقية.

أخفقت بغداد في حل المشكلة الكُردية بطريقة سلمية. وما زاد من تبعات الإخفاق أن بغداد لم تنتبه في شكل دقيق الى التطور الحاصل في بنية الحركة القومية الكُردية بعد الرابع عشر من تموز ١٩٥٨ بفعل عودة بارزاني. وكان الجوهر الرئيسي لهذا التطور يتمثل في أن الموضوع الكُردي لم يعد مجرد نشاطات مسلحة ومبعثرة لايتجاوز نطاقها حلقات ضيقة من القائمين بها، كما كانت الحال في السابق. إنما تحول الى مسألة سياسية واسعة النطاق قادرة على الجذب الجماهيري الكُردي، ومسألة عراقية عامة إنشغلت بها أحزاب وشخصيات سياسية في الوسط السياسي العراقي.

والواقع أن هذا التداخل بين الشأنين الكُردي القومي والعراقي الوطني، الذي لم ينتبه اليه قاسم، كان له تأثير كبير في إخفاق الأخير في حشد

الأحزاب والشخصيات العربية في العراق وراء حربه التي أعلنها ضد الكُرد بالإعتماد على حلقات عسكرية قومية وبعثية في حكمه. وكانت الإشارة الأوضح الى هذا الإخفاق هي التظاهرة الضخمة التي نظمها الحزب الشيوعي العراقي في بغداد في أيار عام ١٩٦٢ تحت شعار (السلم في كُردستان). ومن ثم سقوط حكم قاسم إثر إنقلاب نفذه البعثيون في الثامن من شباط ١٩٦٣ أي بعد أقل من عام ونصف العام من إندلاع إنتفاضة ١١ أيلول ١٩٦١.

مع هذا كلّه، ظلّ الزعيم الكُردي حريصاً على إستثمار كل فرصة ممكنة في إتجاه الحوار السلمي مع السلطات المركزية، مفضلاً عدم تثوير النزعات الهجومية ضمن الحركة القومية الكُردية. وهذا في الوقت الذي كانت منطقة الشرق الأوسط تستعر بنزعات الحدّة والتطرف والهجوم الكلامي وغير الكلامي.

في هذا الإتجاه إستقبل بارزاني في ١٩٦١ موفد الحكومة العراقية آمر اللواء حسن عبود للتباحث معه في آفاق إجراء محادثات سياسية. والأرجح أن بارزاني كان متيقناً من أن زيارة عبود لاتعدو أن تكون مؤامرة تستهدف تحديد مكانه وقتله عن طريق قصف جوي مفاجيء لموقع الإجتماع. وقد صدق حدسه، إذ بعدما قرر تبديل موقع الإجتماع قبل ساعات من إنعقاده، حتى إنقضت الطائرات الحربية العراقية على الموقع الأول وقصفته بشدة. وعلى رغم فشل هذه المحاولة، فإن الزعيم الكُردي لم يتردد عن إستقبال مبعوث آخر من قاسم في حزيران ١٩٦٢ هو قائد قوات الميدان العراقي. ويؤكد الباحث الكُردي كريم فندي أن بارزاني كان يحاول، في تلك الفترة، تهدئة الوضع وإخضاع الأمور للقانون والنظام(١١٤).

لكن الحكومة العراقية، على ما تشير وقائع الأحداث، فسّرت محاولاته السلمية بأنها تعبير عن ضعف موقفه السياسي وهشاشة قدرته العسكرية، ما

(١١٤) فندي، عبدالكريم: البارزاني ومبدأ الحوار السياسي، مؤتمر الذكرى التسعين لميلاد البارزاني الخالد، صلاح الدين ١٤-١٧/٩/١٩٩٣، مطبعة خبات، الطبعة الأولى، كردستان ١٩٩٧.

دفع بها الى تشديد حملاتها العسكرية ورفض كل فرصة مناسبة للتوصل الى سلام عادل ونهائي. وكان التفسير نفسه وراء الهجمات العسكرية العراقية في نيسان ١٩٦٣ على رغم أن بارزاني وافق في مؤتمر شعبي كُردي في كويسنجق في آذار ١٩٦٣ على دخول حزبه في محادثات سياسية مع حكومة البعث. هذا في الوقت الذي يتفق فيه الكُرد والمهتمون الأجانب بالشأن الكُردي على أن بارزاني كان نموذجاً فذاً في جرأته وشجاعته وبسالته وأنه لم يكن يخاف القتال إلا بمقدار ما يعكس هذا القتال من دمار وخراب بالنسبة الى الأهلين والمدنيين.

الصحافي الفرنسي رينيه موريس الذي إلتقى به في جبال كُردستان، يصفه بأعظم محارب فذ أنجبه العصر. لكنه ينقل عنه في الوقت نفسه، روايته المشهورة لمرافقيه: يحكى أن أسيراً رجا من حراسه أن يفكوا وثاقه. ولما سألوه عن السبب، أعرب الأسير عن رغبته في المشي الى شجرة البلوط المجاورة. وافق الحراس، لكن بعد أن أنهى مشيته سألوه عمّا حفزه الى هذا؟ فأجاب بدون تردد: إني مشيت ثلاثين خطوة. ولنفسح المجال أمام شعبنا أن يمشي خطواته الثلاثين(١١٥).

كذلك ينقل موريس عن المهندس البريطاني الذي اشرف على شق طريق رئيسي في كُردستان العراق في العشرينات، أركيبالد ماين هاملتون أن الكُرد شعب شجاع ومخلص وأهل للثقة، وأنهم يملكون شخصاً مثل مصطفى بارزاني الذي هو أعظم عسكري في عصرنا وأنبغهم(١١٦).

في أواخر آذار ١٩٦٣، سافر وفد كُردي برئاسة عضو المكتب السياسي للحزب الديموقراطي، آنذاك، جلال طالباني الى بغداد. لكن هذه المحادثات لم تفضِ الى نتائج عملية على رغم أن طالباني إلتقى ضمن وفد شعبي عراقي بالرئيس المصري في القاهرة والرئيس الجزائري أحمد بن بلله في الجزائر.

والواقع أن الكُرد أملوا في أن تفضي الأجواء الجديدة التي هيأها إنقلاب الثامن من شباط الى إيجاد حل سلمي لمشكلتهم. لكن السلطات البعثية

(١١٥) رينيه موريس، المصدر نفسه، صفحة ٤٩.
(١١٦ المصدر أعلاه، صفحة ١٠٨.

سرعان ما إنقلبت على دعوات الحل السلمي وأخذت تنتهج سياسة إبادة بشرية وإقتصادية مروعة ضد الكُرد.

في هذا الإطار، دمّرت السلطات العراقية ١٢٠٠ منزل لعوائل كُردية داخل مدينة كركوك النفطية في حزيران ١٩٦٣. كما دمرت القوات العراقية في الفترة نفسها ٢٤ قرية في أطراف المدينة، خصوصاً في منطقة (دوبز) شمال غربي كركوك. وفي نهاية حزيران شنت القوات العراقية الخاصة هجوماً مدمراً على قصبة كويسنجق شرق أربيل، وأعدمت عشرات المدنيين بعد ربطهم الى أعمدة الكهرباء وإطلاق النار عليهم. هذا طبعاً بالإضافة الى حملات عسكرية أخرى في السليمانية حيث دفنت السلطات مجموعة من أعضاء الحزب الديمقراطي الكُردستاني أحياءً في مقبرة جماعية واحدة. كذلك كان الحال في سهل أربيل وسهل سليفاني في أطراف دهوك.

هذه الممارسات الحكومية أدت الى تجدد القتال في كُردستان العراق. لكن اللافت أن إيران بدأت تلعب في ظل الظروف الشائكة التي أحاطت بالكُرد، لعبة مزدوجة في مواقفها تجاه تطورات الأوضاع في العراق. والواقع أن إيران كانت تنفست الصعداء بعد سقوط نظام عبدالكريم قاسم، ووصول البعثيين الى الحكم. لكنها في الوقت عينه بدأت تشعر بالمخاوف من توجه البعثيين العراقيين نحو الوحدة مع سورية البعثية ومصر الناصرية، خصوصاً بعد مشروع الوحدة بين الدول الثلاث في نيسان من العام نفسه.

لهذا كانت طهران ترعى مع الغنم وتنام مع الذئب عن طريق مواصلة علاقاتها الخفية مع تيار المكتب السياسي من جهة، وإرسال ضباطها الى غرفة العمليات العسكرية العراقية في كركوك للتنسيق مع البعثيين في مواجهة الإنتفاضة الكُردية من جهة أخرى(١١٧).

العامل الإيراني، معطوفاً على الممارسات العراقية، أسهما في تجدد القتال في ١٩٦٣. إلا أن بارزاني ظلّ متطلعاً الى خيارات السلام، خصوصاً بعد أن

(١١٧)
The Historical Place of the Kurdish National Liberation Movement. Published by The International Relations Committee of the Kurdistan Democratic Party. The Kurds Series No. 3. Calvert`s Press. September 1977. P5.

أطاح عبدالسلام محمد عارف بالنظام البعثي في الثامن عشر من تشرين الثاني ١٩٦٣. وتبدت رغبته السلمية في موافقته، في العاشر من شباط، على هدنة مع الحكومة العراقية لم تسفر بعد مضي عدة أشهر عن نتيجة ملموسة.

عاد الجيش العراقي الى عملياته القتالية بعد إنهيار الهدنة. وما زاد من حدة تلك العمليات أن عبدالسلام محمد عارف أخذ ينتهج طريق التقرب من القاهرة ويزيد من وتيرة تجييش الدولة العراقية، إضافة الى تقربه من موسكو عن طريق مصر. وكان من شأن هذه التوجهات أن تمنع رأب الصدع بين العراق وإيران، ما دفع بطهران الى تشديد تدخلاتها في الشأن الكُردي.

في هذا الخصوص، يذكر عيسى بزمان أنه زار مقر المكتب السياسي بعد سماعه بعزم بغداد وبارزاني على التوصل الى هدنة. وكان يعمل آنذاك مستشاراً عسكرياً في السفارة الإيرانية في بغداد ومسؤولاً عن نشاط جهاز الأمن الإيراني في العراق وعلى صلة ببعض العناصر القيادية في المكتب السياسي للحزب الديموقراطي الكُردستاني. ويشير كذلك الى أنه تحدث الى إبراهيم أحمد وحضّه على رفض الهدنة. وحين عاد الى طهران وقابل الشاه وطلب منه الأخير قطع علاقاته مع الكُرد عقوبة على عزم بارزاني عقد هدنة شباط، أكد بزمان أنه إتفق مع بعض أعضاء المكتب السياسي على معارضة الهدنة حتى إذا أدى ذلك الى إنشقاق الحزب الديموقراطي ومحاربة بارزاني(١١٨).

لاحقاً، حين تحدث بزمان الى بارزاني، أكد له الأخير أنه عاقد عزمه على الهدنة مع عبدالسلام محمد عارف نظراً لحاجة شعبه ومقاتليه الى فرصة لإلتقاط أنفاسهم.

بعد الإتصال الإيراني بالمكتب السياسي دعا إبراهيم أحمد الى مؤتمر حزبي، سرعان ما تم عقده، بحضور غير كامل، في قصبة (ماوهت) في ٤ نيسان ١٩٦٤ جرى فيه بحث تجريد بارزاني من صلاحياته كرئيس للحزب(١١٩).

(١١٨) أنظر: بزمان، عيسى: أسرار عقد إتفاقية الجزائر ١٩٧٥.
(١١٩) تفاصيل أخرى في كتاب سنجاري، علي: الحركة التحررية الكُردية، مواقف وآراء، الطبعة الأولى، مطبعة خبات، كُردستان، دهوك ١٩٩٧ .

في مقابل هذا الإجراء الذي لم يحظ بتأييد القاعدة الحزبية ولا على موافقة أغلبية اعضاء اللجنة المركزية، أضطر بارزاني الى عقد مؤتمر آخر تمخض عن طرد أغلبية أعضاء المكتب السياسي القديم، وإنتخاب مكتب سياسي جديد لإدارة أعمال الحزب الديموقراطي الكُردستاني. أما تيار إبراهيم أحمد فإنه أضطر الى سحب مؤيديه ومقاتليه الى داخل إيران حيث اسكنتهم السلطات الإيرانية في معسكر خاص في مدينة همدان. في فترة لاحقة، أعيد هؤلاء الى كُردستان العراق بعد قرار بارزاني العفو عنهم في ١٩٦٥ بتدخل إيراني.

لكن بعد مقتل عبدالسلام محمد عارف في حادث سقوط طائرته الهليوكوبتر في قرية النشوة قرب البصرة في السادس عشر من أيلول عام ١٩٦٦، حاولت طهران إعادة مدّ الجسور مع بغداد. وما شجعها على تلك الخطوة أن عبدالرحمن محمد عارف، شقيق عبدالسلام، الذي حل محله، تمتع بحس عروبوي أخف. كما أنه كان أقل حماساً للتعاون مع القاهرة ودمشق، إضافة الى توجهه الى الإعتماد على عناصر مدنية في تسيير أمور الدولة. وكانت الإشارة في هذا الإتجاه تكليفه الدكتور عبدالرحمن البزاز بتأليف الوزارة، وزيارته اللاحقة الى العاصمة الإيرانية.

في هذه الأجواء الجديدة بدأت بغداد بدورها تتطلع الى حلّ مشكلاتها مع إيران عن طريق التفاوض. وكان ذلك، في حال تحققه، يمهد الطريق أمام قيام حلف عراقي-إيراني ضد الحركة الكُردية. لهذا لم يتردد بارزاني في الموافقة على عرض عراقي للتفاوض في مطلع حزيران ١٩٦٦. والأرجح أنه أراد من موافقته هذه أن يصيب عدة أهداف في آن واحد. فمن جهة تمكنه المفاوضات مع بغداد من إستثمار الإنتصار العسكري الكبير الذي حققته القوات الكُردية في معركة هندرين سياسياً. ومن جهة ثانية تمكنه المفاوضات من دعم التيار المدني الذي مثله البزاز للعب دور بارز في السياسة العراقية. وكانت عودة الحكم العراقي الى كنف المدنيين، في حال تحققها، تشكل مكسباً مؤثراً بالنسبة الى الكُرد الذين أصابتهم خسارة كبيرة من إنتقال الحكم في بغداد الى يد العسكر.

لم تسفر هذه المحطة التفاوضية بدورها عن نتيجة سياسية ملموسة، خلا

سماح الحكومة العراقية بصدور صحيفة (التآخي) الناطقة بلسان الحزب الديموقراطي الكُردستاني في ٢٩ نيسان ١٩٦٧.

لكن التطور السلبي الآخر الذي عكّر صفو الأجواء أمام الحركة القومية الكُردية أن تيار المكتب السياسي سرعان ما إختار الإنضواء تحت راية السلطة المركزية. وتجسد ذلك بعد هروبهم في ١٩٦٦ وشروعهم في التعاون العسكري مع بغداد ضد الحركة القومية الكُردية.

والأرجح أن تفضيل تيار المكتب السياسي التعاون مع بغداد على حلّ خلافاتهم سلمياً مع بارزاني، هو الذي رسخ لدى الأخير قناعة سياسية مفادها أن أخطاء العلاقة بين العرب والكُرد في العراق لاتنبع من عوامل ومؤامرات خارجية وإستعمارية كما تنظّر لها جهات سياسية وثقافية عربية، إنما من عوامل ذاتية وداخلية مرتبطة بالعرب والكُرد أنفسهم[١٢٠]. وكان هذا التفكير في حد ذاته، حلقة جريئة في أفكار بارزاني في الوقت الذي كانت الحركات والأحزاب السياسية في الشرق الأوسط لاتفسر الأشياء إلا في إطار نظرية (المؤامرات الخارجية).

إتفاقية ١١ آذار ١٩٧٠

بعد الإنقلاب البعثي الثاني في ١٧ تموز ١٩٦٨، ركزت الحكومة العراقية هجماتها العسكرية ضد الكُرد. وفي الفترة ذاتها ،أخذت بغداد تحوِّلُ من توجهاتها نحو اليسار والمحور السوفياتي. وكان هذا التحول الذي لقي هوى كبيراً في قلب موسكو، على صلة بتفاقم خلافات العاصمة العراقية مع إيران الشاهنشاهية، وميلها نحو إستثمار أجواء الإحباط العربي التي نشأت بعد نكسة الخامس من حزيران ١٩٦٧ لمصلحتها الذاتية. هذا طبعاً بالإضافة الى

(١٢٠) يشير السكرتير السابق للحزب الديموقراطي الكُردستاني حبيب محمد كريم في مقال له الى أن صدام حسين (كان آنذاك نائباً لرئيس مجلس قيادة الثورة العراقي) حين زار بارزاني في اوائل ١٩٧٠ تحدث معه عن المشاكل المحتدمة بين العرب والكُرد، ملقياً باللائمة على الاستعمار الذي خلق، على حد قول صدام حسين، تلك المشاكل. لكن بارزاني خالفه الرأي، مشدداً على أن المسؤول الرئيسي عن المشاكل بين العرب والكُرد هم العرب والكُرد أنفسهم في الدرجة الأولى.

رغبتها في ضمان الدعم السياسي والعسكري والإستخباراتي الشرقي، السوڤياتي والألماني الشرقي على الخصوص، لتثبيت حكمها وتجربتها الإنقلابية.

في هذه الأجواء، بادرت بغداد الى الإتصال ببارزاني الذي لم يرفض الحوار كعادته في تجارب سابقة[١٢١]. وقد يصح القول أن الزعيم الكُردي كان يواجه بدوره صعوبات داخلية وإقليمية عدة لا أقلها فشل محاولاته في ضمان دعم أميركي لحركته من جهة، وتزايد درجة التعاون العسكري بين القوات العراقية وجماعة أحمد-طالباني من جهة ثانية. وكان بارزاني زار، سراً، طهران في صيف عام ١٩٦٨ وإلتقى الشاه بصحبة ممثله في العاصمة الإيرانية شمس الدين مفتي. وكانت الخلافات لاتني تتعمق بين بغداد وطهران، خصوصاً بعد إنسحاب بريطانيا من الجزر الخليجية في ١٩٦٩.

من جهة أخرى، تحملت القوات العراقية عدداً من الهزائم العسكرية طوال عامي ١٩٦٨ و١٩٦٩ في حربها ضد المقاتلين الكُرد، إضافة الى صعوبات سياسية وإقتصادية جمّة.

في خصوص المصاعب الإقتصادية التي دفعت بغداد الى خيار المفاوضات مع الحركة الكُردية في ذلك الوقت، أشارت دراسة نشرتها مجلة (نيو ميدل إيست) البريطانية الى أن الحرب العراقية ضد الكُرد كلّفت ميزانية العراق في ١٩٦٩ نحو ٣٠ في المئة[١٢٢]. أما بالنسبة الى الصعوبات السياسية فلا أدل من الإشارة الى أن السلطات العراقية واجهت في كانون الثاني ١٩٧٠ محاولة إنقلابية واسعة. وكانت بغداد تخشى من تعاظم دور إيران في المنطقة، خصوصاً بعد إعلان الرئيس الأميركي ريتشارد نيكسون في جزيرة غوام في المحيط الهادي في تموز ١٩٦٩ تصميم إدارته على دعم الأنظمة المؤيدة لبلاده لتأخذ على عاتقها دوراً رئيسياً في قمع الدول المتمردة وتخفيف العبء عن واشنطن[١٢٣]. والأرجح أن بغداد لم تكن مخطئة في تقديرها أن إيران هي في

(١٢١) فندي، عبدالكريم: المصدر نفسه ١٧٨.

(١٢٢) New Middle East, P25, London 1970

(١٢٣) شكر، زهير: السياسة الأميركية في الخليج العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت ١٩٨٢، صفحة ٥٧

مقدم الدول التي قصدها نيكسون بالأنظمة المؤيدة، بينما العراق في مقدم الدول المتمردة.

أما الكُرد فإنهم واجهوا طوال العقد السادس من القرن الماضي خسائر مادية ونفسية كبيرة جراء نشاطات الإنتفاضة. وينقل الباحث البريطاني ماكداول عن تقرير أعدته لجنة تابعة للأمم المتحدة أن القتال الكُردي العراقي في الفترة بين ١٩٦١-١٩٧٠ أسفر عن تدمير أربعين ألف منزل في سبعمائة قرية كُردية. وتشريد ما يقرب من ثلاثمائة ألف شخص، إضافة الى مقتل وإصابة نحو ستين ألفاً آخرين[١٢٤].

وافق بارزاني على العرض الحكومي العراقي. وبعد مفاوضات شاقة إستمرت طوال أشهر عدة، نجح وفد كُردي برئاسة الدكتور محمود عثمان، في التوصل الى إتفاقية مع بغداد تضمنت بنوداً أعلن عنها في ١١ آذار ١٩٧٠ وأخرى سرية لم يكشف النقاب عنها سوى بعد إنهيار الإتفاقية.

تفاءل بارزاني ببنود الإتفاق على رغم شكوكه حيال نوايا البعثيين[١٢٥]. وهنا، يروي الدكتور محمود عثمان[١٢٦]، أن الزعيم الكُردي أفضى إليه بمخاوفه من نوايا البعثيين عند مطالعته لنصوص الإتفاق. لكنه وافق في النهاية على مسودة الإتفاقية، ربما لثلاثة أسباب رئيسية بحسب الدكتور عثمان:

الأول: تطوير الحركة الكُردية الى مرحلة نضالية أرقى بعد إنتزاع إعتراف رسمي من بغداد بحق الكُرد في الحكم الذاتي.

والثاني: القضاء على التعاون القائم بين مجموعة طالباني والحكومة العراقية.

والثالث: إثبات أن الحركة القومية الكُردية عامل رئيسي في معادلات العراق السياسية. وكان إنكار هذه الحقيقة من قبل الدول الكبرى والإقليمية، في تلك الحقبة، أحد أهم العقبات السياسية أمام إيجاد

(١٢٤) ماكداول، ديفد: المصدر نفسه، صفحة ٩١.

(١٢٥) أنظر: ادمون غريب ص ٨٩.

(١٢٦) المقابلة أعلاه.